حِبر أبيَض
WHITE INK

أ.د. حياة الرشيدي

سليمان باشا العثماني

لـــم تكن حُجَّة قتـــال البرتغاليين كافية للجيـــش العثماني لاحتلال اليمن عســـكريًّا، فإن المفترض أن يُقاتِـــل العثمانيون البرتغاليين في أي مكانٍ دون اعتداءٍ علـــى اليمن وأهلها، ولم يَقُم العثمانيُّـــون بدعم اليمنيّين في حربهم ضد البرتغاليين، والســـيطرةُ عســـكريًّا على موانئ بلدٍ آخر – عدن، المخا - بحُجَّة قتال بلدٍ ثالثٍ أمرٌ غير مقبولٍ شرعًا ولا سياسة، حسبما أورده العديد من مؤرخي الحقبة التاريخية.

ولقد كانت رســـالة القانوني إلى سليمان باشا والي مصر تأمره بقتال البرتغاليين في الهند، فلم يكن هناك داعٍ لتغيير المسار بقتال المسلمين في اليمن والغدر بهم، لقد أدَّت تلك السياسة إلى تَنامي روح المقاومة عند اليمنيّين ضـــدَّ العثمانيين، وكان الضحايا من الطرفين، وكثرة الضحايا أدَّت إلى نمو دوائر الانتقام، ويربط بعض المؤرخين تلك الأحداث بحوادث وأخبار عن الحكم العثماني للشام، ثم مصر، فالحجة الشـــرعية لســـليم الأول في حكم البلدين لم تكن مقنعة، ولم تكن الطريقة شرعيَّة كذلك، ولا ينبغي توحيد بلاد الإسلام عن طريق سفك دماء المسلمين.

تُعتبر حملة ســـليمان باشـــا على اليمن والهند من الحملات التـــي اختلف المؤرخون في تقييم نتائجها، **فالهدف الرئيس لها لم يتحقَّق، وهو هزيمة البرتغال في ســـواحل الهند، وبلاد الحجاز والحرميـــن فيها قبلها؛** بـــل لم تقم علاقات جيدة مع مســـلمي الهند تَكفُل النجـــاح لحملاتٍ أخرى، وتعـــاوُن إســـلامي ضد الصليبيين مثلًا، ومع ذلك فقد حققـــت الحملة نجاحًا عســـكريًّا في اليمن للعثمانيين، ذلك النجاح لم يكن خالصا؛ لأن الطريقة المخادعة التي ســـلكها ســـليمان باشا من أجل الســـيطرة على اليمن، ووجود قوى كثيرة متعارضة في اليمن، ثم الإدارة المتعسِّفة للبلد بعد ضمِّه للدولة العثمانيـــة، كل ذلك جعل اليمن مضطربًـــا إلى حد كبير، ولن تكون القيـــادة العثمانية لهذا القطر آمنةً فيها على مدار القرون القادمة.

عاد ســـليمان باشـــا إلى اليمن في فبراير 1539م، ووسَّع من دائرة ســـيطرته على الجنوب اليمني، وجعل لـــه عدَّة قواعد على خليج عدن، خاصَّةً في مدينتَي عـــدن والمُخا، وكذلك في المناطق الداخلية مثل مدينة زَبِيد غرب اليمن، وتلك كانت نواة تأسيس ولايةٍ عثمانيَّةٍ جديدة هي ولاية اليمن.

كانت الســـنوات التالية للتواجد العثماني في اليمن سيئ على الدولة العثمانية، وقد وصف دفتردار مصر أحمد حلبي حجم المأساة، وهو يخاطب داود باشا والي مصر بعد سليمان باشا، فيقول: "ما رأينا مســـبكًا - فُرنًا يُســـتخدَم لصهر المعادن- مثل اليمن لعســـكرنا، كلَّما جهَّزنا إليه عسكرًا ذاب ذوبـــان الملح، ولا يعود منه إلا الفرد النادر، ولقـــد راجعنا الدفاتر في ديوان مصر من زمن إبراهيم باشا إلى الآن (1546م)، فرأينا أنه قد جُهز من مصر إلى اليمن في هذه المدَّة ثمانون ألفًا من العسكر، لم يبقَ منهم في اليمن ما يكمل سبعة آلاف نفر".

ومن المنطقي أن العشرات من الآلاف من قتلى العثمانيّين لم يكونوا بلا مقابلٍ من الطرف اليمنـــي، بل من المؤكَّد أن قتلى اليمنيين أكثر؛ لكون الأتراك أقوى تســـليحًا، وأوفر عدة وعتادًا؛ لأنهم كانوا يستعملون البنادق في وقتٍ لم يَعرِف فيه أهل اليمن البارود.

ومع ذلك كله تعامَل الســـلطان القانوني مع نتائج الحملة تعامُلًا لم يكن مناسبًا، وذلك رأي مؤرخي الفترة، حيث إنه لم يُجْرِ التحقيق بشـــكلٍ جِدِّي في المســـألة، ولم يُعاقِب ســـليمان باشا على إخفاقاته، ولا على أســـلوبه المغاير لطبيعة المعـــارك العثمانية، بل على العكـــس جعله يترقَّى في المناصب حتى صار الصدر الأعظم للدولة من 1541 - 1544م، ورجَّحوا عدم تعامل الســـلطان مع الأمر بالصورة المناسبة لانشغاله بحروب كبرى في ذلك التوقيت مع البندقية، والمجر، والنمسا، والڤاتيكان، لكن بطبيعـــة الحال لا يعفيـــه من المســـئوليَّة كحاكم يدافع عـــن بلاد المســـلمين، وكانت حروب العثمانييـــن ضد البلاد العربية فيها الكثير من الجَور، لا ســـيما مع كثرة الـــولاة الأتراك، وتعيين حتى القضـــاة منهم وفي المناصب المهمـــة، وأن يديروا كل الدوائر من خلالهـــم، وكتابة التقارير، وخاصة المالية، وجمعها بفرض الضرائب بالقوة، ولم تكن الحجاز بمنأىً عن تلك الممارسات، بل نالت نصيبها، والأماكن المقدسة تم انتهاكها دون مراعاة لقداستها.

وكخلاصة هناك رأي قال:

"وتلك المظـــــالم والأخطـــــاء الشـــرعيَّة هـــي السِّـــــرُّ الأكبر وراء تعثُّـــر الخطوات العثمـــــانيَّة في اليمـن".